حجاجيّة الاستعارة في الخطبة القاصعة للإمام عليّ (عليه السلام)

م. د محمّد ظاهر عفتان

ملخص البحث

إنّ نهج البلاغة يعدّ من نصوص العربية الخالدة، التي حوت من الثراء اللغويّ والطاقة المعنوية ما قلّ نظيره، لذا قامت الدراسة على خطبة من خطب الإمام علي (عليه السلام) الواردة في نهج البلاغة، إذ وسم ب- (حجاجية الاستعارة في الخطبة القاصعة للإمام علي (عليه السلام))، إذ يرمي البحث دراسة الصورة الاستعارية في الخطبة ووظيفتها الحجاجية؛ لكونها كانت الأبرز في الخطبة كمّاً ونوعاً وبيان أثر هذه الصورة في إقناع المتلقين والتأثير فيهم، عن طريق تذوقهم لجمالياتها ونفوذها في نفوسهم، فضلاً عن قدرتها في تغيير سلوك المتلقين لها.

لذا لم يعتمد البحث على التقسيمات المعروفة في متون المصادر والمراجع؛ لاكتفاء البحث بإظهار الطبيعة الحجاجية للاستعارة، وليس بيان تلك التقسيمات التي تنوعت وتعددت بحسب الباحثين ووجهات نظرهم، إذ قام البحث على مهاد تنظيريّ تناول بيان علاقة البلاغة بالحجاج، وعلى محورين، تكفّل المحور الأوّل ببيان حجاجية الاستعارة التصريحية، في حين خُصّ المحور

الثاني ببيان حجاجية الاستعارة المكنية، وقد خلص البحث لخلاصة تضمنت أبرز ما جاء في البحث من نتائج.

تمهيد / علاقة البلاغة بالحجاج

إنّ أقدم ما يوضح لنا علاقة البلاغة بالحجاج هو أرسطو حين قال بأن البلاغة هي ((الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوعٍ كان)) [١]، فهو بهذا القول يبين أنّ البلاغة هي فنّ إقناع السامعين والتأثير بهم، إذ لم يقصر البلاغة على وظيفة التأثير، وإنّما قال بأن وظيفتها الإقناعية هي الوظيفة الرئيسة فيها، وهذا المفهوم قد درج عليه باحثو نظرية الحجاج حديثاً.

وقد فطن العلماء العرب القدماء لمزية الحجاج في البلاغة، إذ نرى الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في قوله: إنّ ((جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواقع الفرصة)) [٢]، قد أبان وظيفة البلاغة بأنّها وظيفة حجاجيّة، فضلاً عن كونها وظيفة تأثيرية، ونجد أبا هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) في قوله: إنّ البلاغة هي ((كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن)) [٣]، قد أشار إلى التأثير المعنوي الذي يقع في نفس السامع عن طريق توظيف الصورة البلاغية.

والاستعارة هي تركيبٌ انزياحيّ يحمل المتلقي على تخيُّل صورة جديدة فيما تتضمنه من تشبيه خفي مستور، وإذا علمنا في التشبيه كيف تتحقق صفة من الصفات في شيءٍ ما بصورة قويّة، فإنك ترى في الاستعارة خطوة أبعد في التخيل، الذي يعبر عن تأثرنا بمظاهر الحياة والإحياء، تعبيراً حافلاً بمختلف المشاعر والأحاسيس عن طريق الترابط التعالقي فيها، قال السيوطي (ت٩١١هـ): ((زوج المجاز بالشبيه فتولد بينهما الاستعارة)) [٤]، وهنا تكمن صعوبة التعامل مع الاستعارة؛ لكونها مزيجاً من المجاز والتشبيه، إذ تقوم بإعادة صياغة الواقع، وتقيم العلاقات بين أشياء لا يمكن تصوّر إقامة علاقة بينهم، إذ تجمع بين المتناقضات، وتبعث غير مألوف من الأشياء من المألوف منها[٥].

ومن المنظور العلامي فإنّ الانزياح العلائقي في الاستعارة هو مدلولٌ يعمل كدالٍ على مدلولٍ آخر، وتدخل فيها الصيغة الأيقونية في تحديد وثبة الخيال في الوصول إليها[٦]، وتقوم

بتوزيع الدوال على المدلولات بشكل جديد.

وقد وصف الدكتور طه عبد الرحمن القول الاستعاري بثلاث صفات[٧]:

١. إنّه قول حواريّ، وهذه الحوارية ميزة ذاتية في الاستعارة، وناتجة عن الذوات المشتركة فيها.

٢. إنّه قول حجاجيّ، وهذا الحجاج فيه هو حجاج تفاعليّ، يقوم على آليتي الإدعاء والاعتراض.

٣. إنّه قول عمليّ، وصفته العملية تلازم ظاهره البيانيّ والتخييليّ.

أما الأثر الذي تمارسه الاستعارة في الحجاج فيتجلّى بقول أبي بكر العزاوي إنّ الاستعارة تقوم بدور مماثل لدور بعض الروابط الحجاجية مثل "حتى"، فالدليل الذي يأتي عادة بعد هذا الرابط يكون أقوى حجاجياً، وأعلى سلمياً من الأدلة التي ترد قبله، فهي من الوسائل اللغوية التي يوظفها المتكلم أو الباث للوصول إلى أهدافه الحجاجية، وعليه فإنّ المتكلم يوظّف الاستعارة بكونها دليلاً على النتيجة، والقياس الحجاجي فيها غالباً ما يكتفي بالنتيجة وإضمار الحجج والمقدّمات، ولهذا تكون الأقوال الاستعارية أقوى حجاجياً من الأقوال العاديّة[٨].

فالاستعارة آلية من آليات الإقناع، وتقنية تصويريّة تنقل لنا المعنى بطريقة استبدالية تعالقية، فهي غالباً ما تقوم بنقل المعاني المجردة إلى صورة حسية ((ضمن بنية إيضاحية تصويرية، لتغيير مسار الذهن وتحفيز المتلقي بصورة أعمق))[٩]، لكونها تسبغ ملامحها الفنية على النص ما يجعل المتلقين يتحسسون مواطن الجمال فيها، وهذا التحسس هو كفيل بإقناعهم بحسب طاقته الحجاجية، وقوة بنائه النصيّ[١٠]، ويظهر الأثر الحجاجي للاستعارة مصوراً في ارتكازها على المستعار منه، سواء أ كان صريحاً أم ضمنياً، الذي يرتبط بنسق القيم العليا، وينزل منزل الشاهد الأمثل والدليل الأفضل[١١].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الاستعارة تخرج عن معنى (التابعية)، أي أنها تكسب الألفاظ دلالات جديدة غير الدلالات المتواضع عليها، وبتوظيف الاستعمال لهذه المفردات تكون قد جعلت الدلالات الاستعارية لها بمثابة المعاني الأصلية فيها، فتكون الأولى تبعاً للاستعارة وليس العكس، كما أنها تخرج عن معنى (الاستبدال)؛ لأنّ الاستعارة بطبيعتها تميل إلى إعمال الذهن وكثرة

التأمل فيها لفهمها والوقوف عند دلالتها، ومفهوم الاستبدال يحمل في طياته تفسيراً لمعاني الجمل، وهذا ما لا يتوفر في الاستعارة بشكله الواضح، فهي تميل إلى الغموض والخفاء في أغلب مواطنها، بل إن القرائن الحالية والمقامية أحياناً لا تكفي لكشف طبيعة الاستعارة والوصول إلى المعنى المراد منها، فماهية الحجاج تتجلى في كونه ينطوي على نوعٍ من الالتباس والغموض، وهذا ما يميز الحجاج عن الاستدلال البرهاني الواضح والبعيد عن التعقيد[١٢]، وهذه الميزة في الحجاج تتحقق بصورة جلّية في الاستعارة.

لهذا فنحن في الاستعارة نحلق في آفاق رحبة من العمق والاتساع، محمولين على أجنحة الذوق والتأثر النفسي[١٣]، لذا اعتنى الدرس البلاغي بتحليل وظيفة الصورة الاستعارية وبيان وظيفتها الجمالية والحجاجية في الشعر أو الخطابة، وسيقف البحث عند الخطبة القاصعة للإمام علي (عليه السلام)، فالقصع في اللغة الضرب، يقال: قصع الغلام قصعاً، أي: ضربه ببسط كفّه على رأسه، وغلامٌ مصقوع وقصيع كادي الشباب[١٤]، قال ابن أبي الحديد (تهـ): ((تسمى القاصعة لأنّها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبية... ويجوز أن تسمى القاصعة؛ لأنّ المستمع لها المعتبر بها يذهب كرهه ونخوته، فيكون من قولهم: قصع الماء عطشه، أي: أذهبه وأسكنه))[١٥].

وقد خطب الإمام علي (عليه السلام) هذه الخطبة في ذم الكبر، وهي تتضمن ذم إبليس على استكباره، وعزوفه عن السجود لآدم (عليه السلام)؛ لكونه أوّل من أظهر المعصية، وتحذير الناس من سلوك مسالكه[١٦]، فأراد الإمام من الناس الانتباه والحذر.

المحور الأوّل
صفة الله تعالى وصفة أنبيائه

- الحمد لله الذي لبس العزّ والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرماً على غيره[١٧]

إنّ لفظ (لبس) هو لفظ مستعار، إذ صوّر الإمام (عليه السلام) العزّ والكبرياء، وكأنها رداء أو ثوب، وفي هذا تصوير للمعنى المعنوي أو المجرد بهيأة المادي المحسوس، وقد أردف قوله بأنّ العز والكبرياء من صفات الله تعالى التي اختصّ بها نفسه، من ثم يعود الإمام إلى

توظيف الاستعارة بقوله: (جعلهما حمى وحرماً)، أي: العز والكبرياء، و((الحمى: ما حميته من وصول الآخرين إليه والتصرّف فيه))[١٨]، إذ صوّرهما بصورة الحمى الذي لا يساوره أحد.

وقد أراد الإمام بهذه الصورة بيان اختصاص، فالنتيجة الحجاجية الكامنة في النص هي بيان اختصاص الله تعالى بهذه الصفة من دون غيره، فهو وحده المتعال المتكبّر.

- فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفّروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين[١٩]

وقد جعل الإمام هذه الصورة التي اختصّ بها أنبيائه وأوليائه ومن ابعهم من المؤمنين في قبالة عزه وتكبره، فهم قد ألصقوا خدودهم بالأرض تواضعاً وتذللاً لله تعالى، وعفروا وجوههم بالتراب، وقد صوذر لينهم وحسن معاملتهم بخفض الجناح، وهي صورة استعارية قرآنية استمدها الإمام من كتاب الله، قال تعالى يأمر نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿... وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢١]، فغالباً ما يعبّر عن اللين والرفق بخفض الجناح، وقد جاء الحجاج في هذا القول بصورة قوية ومؤثرة؛ لكونه استند إلى معطٍ قرآني وهو الآيات السابقة، التي تحمل متلقيها على الإذعان والتسليم؛ لأنها صادرة من عند الله تعالى.

المحور الثاني
التحذير من الشيطان

- فاحذورا عباد الله عدو الله أن يعديكم بدائه[٢٢]

وقعت الاستعارة في قول الإمام (يعديكم بدائه)، إذ صوّر التكبّر بصورة المرض المعدي، وهذه صورة جلية في التحذير والتخويف، إذ صوّر المعنى التجريدي للكبر، بمعنى محسوس يصيب البدن، وهذه الإصابة قد لمس خبرتها أغلب الناس، فأراد الإمام تنبيههم إلى طبيعة هذا السلوك - الكبر - الذي يصيب النفوس فيجعلها مريضة، كالداء الذي يصيب الجسد فيجعله عليلاً، وقد جاءت هذه الصورة في غاية في الحجاج، إذ يبرّز فعل المقابلة في إعارة (الداء) لل-(كبر)، وظيفة استبدالية بين الدوال ومدلولاتها، التي أفرزت طاقة حجاجية عالية في الخطاب.

أما قوله (عليه السلام):

- وأن يجلب عليكم بخيله ورجله[٢٣]

صورّت الاستعارة في هذا القول أصحاب السوء، وقد شبههم الإمام عليه السلام بأنهم شيع إبليس ورجاله، وهذه صورة مرعبة للناس، إذ جعل إبليس الذي طُرد من رحمة الله تعالى ورضوانه قائداً لكل من فعل فعله واقتفى أثره، فلا يخفى على أحدٍ أن أبليس إنما طُرد من رحمة الله؛ لكونه قد تكبّر على آدم (عليه السلام)، وعصى ربّه، فجعل الله لعنته الدائمة عليه وعلى من اتبعه إلى يوم القيامة.

وقد عضّد الوظيفة الحجاجية للاستعارة في هذا الموضع طريقة الإتباع بالفعل، فمن فعل فعل إبليس فهو عونه ونصيره، وهذا الأسلوب أقوى حجةً، وأعمق بينةً.

- فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد[٢٤]

جاءت الاستعارة في البنية الخطابية (سهم الوعيد، النزع الشديد)، وقد أشار الإمام (عليه السلام) لأفعال أبليس الذي جاء ذكره مستتراً في النصّ، تصويراً للطبيعة المجردة التي يتصف بها، فأراد الإمام تقريب هذا التجريد لطبيعة إبليس وأفعاله عن طريق توظيف الأسلوب الاستعاري، الذي من سماته أنه لا يدرك باللمحة الأولى، بل أنّه يحتاج تأمل وتفكر في معطياته من ثم في نتائجه.

وقد صور إبليس وكأنّه رامٍ يقد سدد سهمه بإتقان واحتراف؛ وقد أقسم الإمام (عليه السلام) بقوله: (لعمري)، جرياً على عادة العرب في كلامها، ومن صفات السهم الاختراق والعمق، وقد تحقق لإبليس ذلك، إذ جعل الوعيد، وهو الأمل بالشيء من دون التأكّد من حصوله سبيله لهم، أما قوله (النزع الشديد) فهي صفة للقوس حين يمدّ ويجّهز للرماية، وقد استعير هنا لفعل إبليس؛ لأنّ الإمام أراد بهذا الوصف بيان ترصّد إبليس ببني آدم، وإقصائهم بسهمه وقوسه، أي: من رماه فقد رماه، ومن لم يصيه فقد استعد له إبليس.

وهنا تبرز الطاقة الحجاجيّة للاستعارة في أقوى مظاهرها في التحذير من سهام إبليس وضرورة الفطنة والحذر من مكامنه وشباكه.

- حتى انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطماعية منه فيكم، فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي[٢٥]

ويستمر الإمام في وصف حال من تبع إبليس، وما زال الإمام معتمداً على الطبيعة الاستعارية للخطاب، فقوله: (انقادت الجامحة)، والجموح صفة للفرس في حال هياجها وتمردها، وقد استعار هذه الصفة للطائفة أو الجماعة التي جانبت إبليس وجنوده، إلا أنهم انقادوا إليه، وقد حصل هذا الانقياد له بفعل التكبّر والتفاخر، الذي جعله إبليس سبيله إليهم، وبهذا الوصف حقق الخطاب حجاجية لا سبيل لردها أو عدم الإذعان لها، فكأنما أراد القول أنه عدل لإبليس من كان عصيّا قويّاً فكيف بكم أيّها الناس، وقد رأى جامحكم قد مال إليه؟؟؟

- حتى اعنقوا في حنادس جهالته، ومهاوي ضلالته[٢٦]

هنا يبين الإمام (عليه السلام) هيأة من لهث وراء نفثات الشيطان، إذ يقول: (اعنقوا)، أي: مدوا أعناقهم وبالغوا في مدّها، و(الحنادس) الظلمات الشديدة، أو الليل الشديد الظلمة[٢٧]، وقد برزت الطاقة الحجاجية في هذا الموضع في تصوير حالة التلبس والسيطرة التي صارت لإبليس عليهم، وقد وقعوا في مسالك الجهالة، ومهاوي الضلالة، وهذان السبيلان المعنويان قد صوّرا بصورة المادي المحسوس، تصويراً لمدى ابتعادهم عن الله تعالى ومجانبتهم للحقّ والصواب، وإتباعهم جادة إبليس وأشياعه.

- اتخذهم إبليس مطايا ضلال[٢٨]

لقد صور في هذه البنية الخطابية من اتبع إبليس، وقد جيء بأبشع صورة يمكن للإنسان تصوّر نفسه فيها، وهي أن يكون مطية غيره، وهذه الصورة الاستعارية قد بينت حال الذل والهوان التي يصل إليها من انقاد لكبره وتكبّره، وقد حققت الإضافة بين (مطايا، وضلال) نتيجة حجاجية خالصة، قد أجملت كل النتائج الأخرى من أفعال القوم وسلوكهم، التي أفضت إلى كونهم قد غدو مطايا للضلال، الذي صوّر هو الآخر بهيأة المادي الملموس، على الرغم من طبيعته المعنوية المجردة، وهنا حققت الاستعارة أعلى حجاج لها.

- ألا وأنكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، وثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية[٢٩]

لقد تضمن هذا القول استعارة غاية في الروعة والتصوير، وهو قوله: (نفضتم أيديكم من حبل الطاعة)، فالنفض أن

تأخذ بيدك شيئاً فتزعزعه ويسقط منك[٣٠]، وكأنما أراد الإمام تصوير حال الناس وهم يتبعون الشيطان في خطواته، وكأنما هم كانوا ممسكين بالطاعة التي شببها بالحبل على سبيل الاستعارة أيضاً، وسرعان ما سقط منهم ذلك الحبل، الذي لم يقف عند معنى التخلي عن الشيء فقط، وإنّما النفض يحمل في طياته معنى الإرادة والاختيار في التخلي أيضاً.

أما قوله: (ثلمتم حصن الله المضروب...)، فقد صوّر الإسلام بكونه حصناً ضربه الله عليهم؛ لحمايتهم من نفثات الجهالة والضلالة، فالحصن المكان المنيع لا يصل إلى ما في داخله، من قولهم: حُصنّت القرية إذا بنيت ما حولها[٣١]، وكأنما أراد أن يقول لهم: إنّ الله تعالى قد حصنكم من كل شيء فيه آذيتكم أو هلاككم، بما فيه من نجاتكم وسلامتكم، لكنكم قد ثلمتم هذا الحصن بتكبركم وببغيكم، وجعلتموه مغرزاً للشيطان، ولم يقفوا عند هذا الحد بل مادوا في طغيانهم، الذي يصوّره قوله (عليه السلام):

- قطعتم قيد الإسلام، وعطلتم حدوده، وأمتم أحكامه[٣٢]

إذ وصف الإمام بقوله هذا الأمور المجردة بهيأة الماديات المحسوسات، إذ استعار للإسلام صفة (القطع، والقيد)، وللحدود صفة (التعطيل)، وللأحكام صفة (الموت)، أي: أن كل من أراد أن يتخذ أن يذعن للكبر والتعزز فقد فعل ما قلته، وهذا القول مضمر في الخطاب الذي اسلم بفعلهم وتحققه واقعياً بدليل مجيء الجملة الخبرية بزمن الفعل الماضي الذي من صفاته أنه يدل على تحقق وقوع الفعل، وبهذا فقد برزت حجاجية الصورة متعضدة بالدليل من نواحيها الخطابية كافة.

المحور الثالث
الوعظ والإرشاد

- اتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده[٣٣]

هنا الإمام هو في موضع الواعظ والناصح، والمرشد والهادي للناس من سهام إبليس وجنوده، إذ يقول: (اتخذوا التواضع)، لأنّ المقام مقام حديث عن التكبر، ودواء هذا الداء هو التواضع، وقد صوّره بصورة استعارية غاية في الروعة، بقوله: (خذوا التواضع مسلحة)، والمسلحة هم ((القَوم الّذين يحفَظون

الثّغور من العدو))[٣٤]، وقد جعل الإمام التواضع مسلحة؛ لأَنهم يكونون به ذَوي سلاحٍ، أي كأنهم يسكنون التواضع، الذي هو كالثَّغر الذي يكون فيه أقوم يرقبون العدو؛ لئَلا يطرقَهم علَى حين غفلة، وقد برزت الاستعارة في هذا الموضع بصورة مضادة للصور السابقة التي ظهر فيها التكبّر.

إذ جيء بالمفردة (مسلحة) على سبيل الحجاج الاستعاري؛ تصويراً لنقيض الكبر، وهو التواضع والتذلل، الذي هو على الرغم من كونه ليناً معنوياً، إلا أنه في حقيقته سلاحاً فعّالاً لصد إبليس وجنوده.

- لا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم[٣٥]

وينتقل الإمام من صيغ الأمر في (اتخذوا) إلى صيغة النهي (لا تطيعوا)، تحذيراً من رؤوس القوم الذي هم دعاة إبليس، وتعبير (شربتم بصفوكم كدرهم)، هو خطاب مستعار، إذ استعار للراحة والطمأنينة لفظ (الصفو)، وإلى الحقد والضغينة لفظ (الكدر)، وكذلك قوله: (خلطتم بصحتكم مرضهم)، إذ استعار لهداية الناس لفظ (الصحة)، ولضلال رؤسائهم (المرض)، من باب تشبيه المعنوي المجرد بالمادي المحسوس، تقريباً لأذهان المتلقين، وحملهم على الإقناع بهذه الصورة الحسية المجسدة.

- اجتنبوا كل أمرٍ كسر فقرتهم، وأوهن منّتهم[٣٦]

عندما كان الإمام (عليه السلام) في معرض الحديث عن الأمم السابقة وما حلّ بها بسبب طغيانها وتكبرها، فكان حرياً بالإمام تنبيه الناس لما أصابهم وضرورة تجنبهم ما فعلته تلك الأمم السالفة، إذ يقول: (اجتنبوا كلّ أمرٍ كسر فقرتهم)، والفقرة هي ما انتظم من عظم الصلب من الكاهل إلى عجز الذنب، وقد استعير هذا اللفظ لتصوير قوتهم وشدة انتظامهم وبأسهم، لكن هذا لم يغنهم شيئاً من بأس الله وجبروته، وغالباً ما يعبر عن الضعف والهوان بكسر الظهر الذي يتجلى بكسر الفقر؛ لكونه المحور الأساس الذي ينتصب به جسم الإنسان.

وتوظيف هذه المفردة على سبيل الاستعارة يسبغ على النصّ قوّة اجازيّة عالية التأثير في متلقيها، الأمر الذي يجعلها أبين خطاباً وأكثر حجاجاً.

- فالله الله في عاجل البغي، وآجل وخامة الظلم، وسوء عاقبة الكبر، فإنّها

مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة، فما تكدي أبداً ولا تشوي أحداً[٣٧]

هنا أراد الإمام (عليه السلام) أن ينبه لآلات إبليس التي يجعلها طعماً للوقوع في بحر ضلالته، إذ جعل البغي والظلم والتكبر مصيدة إبليس، وكأنه قد نصب فخاً من هذه الخصال الثلاث للانزلاق في مهالكه ومكايده، التي تجري في العروق مجرى السم في البدن، لا يسلم منها العلماء فكيف الحال بالجهلاء، واستعار لفظة (مصيدة)؛ إبرازاً لطبيعة إبليس المخادعة والمضلة، ويستشف الحجاج في هذا الخطاب؛ بكون إبليس مخادعاً محتالاً يريد بكم سوءاً لا حسناً، بدليل وقع هذه السلوكيات في نفوسكم وما تورثه من حقد وبغض بينكم.

- فالله الله في كبر الحمية، وفخر الجاهلية، فإنه ملاقح الشنآن، ومنافح الشيطان[٣٨]

هنا الإمام يحذّر وسائل الشيطان التي يجعلها سبيلاً للإيغال في نفوسهم، وقد رسم لنا صورة استعارية تعالقية غاية في الدقة، إذ يقول إنّ التكبر والحمية فيه، والتعصب للجاهلية ماهي في حقيتها إلا ملاقح الشنآن، والملاقح في أصلها هي الرياح التي تحمل الندى وتمجّه في السحاب، وهنا يرسم لنا صورة عمل الشيطان، وكأنّه يجعل هذا الكبر والفخر مادته التي يمجها في النفوس فيورثها الحقد والبغض، ولم يكتف بهذه الصورة بل أردفها بقوله: (منافح الشيطان)، ونفحت الريح: نسمت وتحرّكت أوائلها، ونفح اللبن نفحة: مخضه مخضةً واحدة. وطعنة نفّاحة: تنفح بالدم إذا نزا الدم منها نزواً. وقوس نفوح: بعيدة الدفع للسهم[٣٩]، وهذه المعاني قد أجملها الإمام (عليه السلام) في قوله: (ملاقح، ومنافح)، وقد برز الحجاج في أجلى صوره في هذا الإجمال والاختزال المعنوي للاستعارة، الذي يبعث الذهن على التفكّر والتأمّل في وسائل إبليس وطرقه.

- اعتمدوا وضع التذلل رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم[٤٠]

وبهذه البنية يصل الإمام (عليه السلام) إلى بيان الدواء والبلسم الشافي لمرض التكبّر، وقد جعل الخلاص منه باعتماد التواضع الذي صوّره بصورة استعارية لطيفة، إذ يقول: (وضع التذلل

فوق رؤوسكم)، إذ شبهه بالغطاء الذي يوضع على الرأس، فضلاً عن التخلص من العزّة التي عبر عنها بقوله: (إلقاء التعزز تحت أقدامكم)، بياناً لصغر مقداره وحقارته، أما التكبر فقد جيء به بصورة القلادة التي تحيط بالعنق، إذ يقول: (وخلع التكبّر من أعناقكم).

وقد جاءت هذه الدوال بصورتها المجازية على سبيل الاستعارة؛ لتكشف طبيعة المدلولات المكتنزة في طياتها، لتكون فياضة بطاقاتها الحجاجية، وقدرتها الإقناعية الكبيرة.

المحور الثالث

صفات إبليس

- نازع الله رداء الجبرية، وادرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل[٤١]

الإمام في هذا التعبير يصوّر للناس مدى شناعة الفعل الذي قام به إبليس، ومدى جرأته، وقد وظّف التصوير الاستعاري بصورة منقطعة النظير، إذ يقول: (نازع الله رداء الجبريّة)، إذ صوّر الجبروت وكأنّه رداء قد خطه الله تعالى لنفسه، وأن إبليس قد نازع الله رداءه، ولا يخفى ما لشناعة هذا الفعل من قباحة، فكيف له بمنازعة من هو أحق بهذا الجبروت، وألزم بهذا الكبرياء.

ولم يكتف الإمام بهذا التصوير، وإنما أردفه بقوله: (وادرع لباس التعزز)، إذ صوّر العزة بهيأة درع، أما قوله: (خلع قناع التذلل)، فقد جعله في نهاية ما قام به إبليس، فمن يقوم بهذه الأفعال فلا محال أنه قد تخلى عن التذلل والانقطاع لله تعالى، وقد صوّر الإمام التذلل بصورة (القناع)، وكأنه كان مدعياً ومرائياً بالتذلل، ولم تكن طاعته لله حقيقية.

- ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطأوكم أثخان الجراحة[٤٢]

إذ استعير لفظ (ولجات) في قوله: (فأقحموكم ولجات الذل) تصويراً على رمي أنفسهم في مهالك الشيطان من غير روية أو توعدة، وهذا القول يحمل معنى الجهل والتسرع، واستغفال الحق والهداية، وأن نفوسهم مهيأة لاستقبال نفثات الشيطان ونفحاته المضلّة، وتتمظهر الوظيفة الحجاجية لهذه الاستعارة بتحقق الآثار الواقعية لما ينفثه الشيطان في نفوسهم، وظهورها بمظاهر العصبية والحقد والتكبّر، الذي استرسل الإمام (عليه السلام) في بيان طبيعته وماهيته على مدى الخطبة بصورتها الكاملة.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الشائقة في رحاب نهج البلاغة، لابد للبحث من خلاصة تتضمن أبرز ما توصل إليه من نتائج:

١. إن الخطبة القاصعة كانت معيناً لغوياً ثراً، وطاقة فكرية عالية.

٢. عدت الاستعارة تقنية حجاجية إقناعية، وفعالية خطابية متميزة، فضلاً عن كونها فنّاً جمالياً يعمل على إغراء المتلقي، وجذب انتباهه عن طريق إخراج غير المألوف من المعاني والصور من المألوف منها.

٣. شكّلت الاستعارة في الخطبة القاصعة المحور الرئيس بين الفنون البلاغية الأخرى، إذ طغى الفن الاستعاري عليها بشكلٍ واضحٍ وجليٍّ.

٤. إن الباحث وراء تمركز المعاني وتقولبها في الاستعارة في الخطبة، ربما يكون مرده لطبيعة الذوات التي تكلم عنها، فمن المعروف أن الشيطان هو ذات مجردة غير مدركة بالحس البشري، والاستعارة تحتاج إلى كد الذهن وإعمال العقل للتوصل إلى مرادها، إذن هنا تكمن حكمة الإكثار من هذا الفن؛ لمناسبته لمقام التنبيه والتحذير من الشيطان، والذي يجب على الناس إعمال عقولهم؛ ليكونوا من غدره على حيطة ويقظة.

المصادر والمراجع

- ✓ القرآن الكريم
- ✓ الأثر القرآني في نهج البلاغة (دراسة في الشكل والمضمون)، د. عباس الفحام، مكتبة الروضة الحيدرية، ط١، بيروت، ٢٠١٠م.
- ✓ أساس البلاغة، أبو القاسم الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٨م.
- ✓ أسس السيميائية، دانيال تشاندلر، ت: د. طلال وهبه، مراجعة: د. ميشال زكريا، المنظمة العربية للترجمة، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م.
- ✓ أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي (تنظير وتطبيق على السور المكية)، مثنى كاظم صادق، منشورات ضفاف، ط١، بيروت، ٢٠١٥م.
- ✓ البلاغة العربية في فنونها البديع والبيان، محمد علي سلطاني، دار العصماء، د. ط، دمشق، ٢٠٠٦م.
- ✓ البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وضع حواشيه: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٨م.

- ✓ الحجاج في البلاغة المعاصـرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، د. محمد السالم، دار الكتاب الجديدة، ط١، ٢٠٠٨م.
- ✓ شـرح نهج البلاغـة، ابن أبي الحديد المعتزلي (ت)، دار الكتاب العربي، بغداد، ط١، ٢٠٠٧م.
- ✓ كتـاب الصـناعتين (الكتـابـة والشعر)، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، محمـد محي الـدين عبـد الحميـد، دار الطلائع، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- ✓ لسـان العـرب، ابـن مـنـظـور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، د. ت.
- ✓ اللسـان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، ١٩٩٨م.
- ✓ اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، ط١، الدار البيضـاء، ٢٠٠٦م.
- ✓ معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٨م.
- ✓ نهج البلاغـة، الإمـام علي (عليـه السلام)، جمع: الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، ضبطه: صبحي الصالح، أنوار الهدى، ط٣، قم، ١٤٢٩هـ.

Abstract

The approach of the speech of Imam Ali (peace be upon him) contained in the approach of Balagha, and marked the (metaphorical pilgrimage in the sermon of the Imam Ali) The purpose of this research is to study the metaphoric image of the sermon and its mission of Hajj. It is the most prominent in the sermon in terms of quantity and quality, and the impact of this image on persuading the recipients and influencing them by tasting them for their beauty and influence in them, as well as their ability to change the behavior of the recipients .

Therefore, the research did not depend on the known divisions in the source of references and sources; to suffice the research by showing the pilgrimage nature of the metaphor, rather than the statement of those divisions that varied and varied according to the researchers and their views. The second axis of the metaphorical metaphor of metaphorical metaphysics, and the conclusion of the research to summarize included the most important findings in the research .

الهوامش

(١) الخطابة: ٢٩.

(٢) البيان والتبيين: ٩٩/١.

(٣) كتاب الصـناعتين (الكتابة والشـعر): ٥١/١.

(٤) معترك الأقران: ١٨٦/١.

(٥) ظ: الأثر القرآني في نهج البلاغة، دراسة في الشكل والمضمون: ٢١٨.
(٦)) ظ: أسس السيميائية: ٢١٩.
(٧)) ظ: اللسان والميزان: ٣١٠.
(٨) ظ: اللغة والحجاج: ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦.
(٩) أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي (تنظير وتطبيق على السور المكية): ١٧٧.
(١٠) ظ: الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر): ١٦٦.
(١١) ظ: اللسان والميزان: ٣١٢.
(١٢) ظ: اللسان والميزان: ٢٣٠، ٣٠٢.
(١٣) ظ: البلاغة العربية في فنونها: ١٤٢.
(١٤) ظ: لسان العرب: ٢٧٤/٨.
(١٥) شرح نهج البلاغة: ٨٤/١٣.
(١٦) ظ: نهج البلاغة: ٣٩٤.
(١٧) م. ن: ٣٥٩
(١٨) م. ن: ٣٦٠.
(١٩) نهج البلاغة: ٣٦٧.
(٢٠) الحجر: من الآية ٨٨.
(٢١) الشعراء: ٢١٥.
(٢٢) نهج البلاغة: ٣٦١.
(٢٣) نهج البلاغة: ٣٦١.
(٢٤) م. ن: ٣٦٢.
(٢٥) نهج البلاغة: ٣٦٢.
(٢٦) نهج البلاغة: ٣٦٤.
(٢٧) ظ: لسان العرب: ٥٨/٦ (حندس).
(٢٨) نهج البلاغة: ٣٦٥.
(٢٩) نهج البلاغة: ٣٧٦.
(٣٠) ظ: لسان العرب: ٢٤٠/٧ (نفض).
(٣١) ظ: م. ن: ١١٩/١٣ (حصن).
(٣٢) نهج البلاغة: ٣٧٧.
(٣٣) م. ن: ٣٦٣.
(٣٤) لسان العرب: ٤٨٧/٢ (سلح).
(٣٥) نهج البلاغة: ٣٦٥.
(٣٦) م. ن: ٣٦٦.
(٣٧) نهج البلاغة: ٣٧٠.
(٣٨) م. ن: ٣٦٤.
(٣٩) ظ: أساس البلاغة: ٢٩٠/٢ (نفح).
(٤٠) نهج البلاغة: ٣٦٣.
(٤١) نهج البلاغة: ٣٦٢.
(٤٢) م. ن.